ضدّ الجميع

(نصوص وقحة لمن يجرؤ فقط)

{لقد أُصبتُ بعدوى التفكير... ولن أشفى!}

وَديعْ طُعمَة
كاتب وباحث وأخصائي نفسي

2025

ضدّ الجميع

وديع طعمة

من كثرة ما تقيّأتُ على الواقع، صرتُ أخاف أن أعتاد مذاقه !

أنا آخر ضحايا العقل في هذه الأرض... وأوّل الملعونين بالأسئلة !

مسودات قديمة تعود لعامي 2012-2013

ضدّ الجميع

(نصوص وقحة لمن يجرؤ فقط)

{لقد أُصبتُ بعدوى التفكير... ولن أشفى!}

وَديعْ طُعمَة

كاتب وباحث وأخصائي نفسي

2025

ضدّ الجميع

وديع طعمة

"ضدّ الجميع"
(نصوص وقحة لمن يجرؤ فقط!)

تأليف:

وديع طعمة

(كاتب/ باحث/ أخصائي نفسي)

سنة الإصدار:

2025

لقد أُصبتُ بعدوى التفكير... ولن أشفى!

من كثرة ما تقيّأتُ على هذا الواقع، صرتُ أخاف أن أعتاد مذاقه!

أنا آخر ضحايا العقل في هذه الأرض... وأوّل الملعونين بالأسئلة!

مسودات قديمة تعود لعامي 2012-2013

إهداء لا يعتذر؛

إلى من تجرأ على النظر في المرآة، وسأل نفسه، لا الآخرين:

هل أنا المجنون... أم أن هذا العالم بحاجة إلى مصحٍّ جماعي؟!

إلى الذين لم يحتاجوا أكثر من كتاب ديني واحد... ليتقيّأوا ما فيه؛

إلى من بصقوا في وجه أول واعظ قال لهم: الله فوقكم يراقب خطواتكم وعدد نطفكم!

إلى الذين أصبحوا غُرباء في أوطانهم، كفّارًا في بيوت آبائهم، خونة في نظر بيئتهم، لكنّهم... أحياء داخل رؤوسهم!

يحملون حريتهم كما يُحمل صليبٌ ثقيل، لكنهم لا يضعونه أبدًا!

إلى أولئك الذين فكّروا... فدفعوا الثمن!

الذين لم يبيعوا عقولهم مقابل الطمأنينة، ولم يستبدلوا الألم بالرضى الكاذب!

أخص بالذكر أصدقاء الفكر والدرب: رضوان عليا، كريستيان كنوزي، زافين بحي، سركون برخو، داني طنوس، بشار كحيل، ربيع سليمان، عماد صليبي، لبنى حسن، روزا أحمد... وكلّ من قرأ كتبي السابقة، لا للترف الثقافي، بل ليشعل بها شرارة خلاصه! من طبعها، نشرها، أو ببساطة... فهمها!

وإلى الحمقى جميعًا — دون استثناء — الذين ما زالوا يظنون أن الطاعة وعي، وأن التسليم حكمة، وأن الإله مشغول بإحصاء النظرات، والقبل، وفناجين القهوة!

إليكم هذا الكتاب...

لتُحرقوا به أدمغتكم، أو تحترقوا غيظًا منه!

وفي الحالتين؟!

أنا لا أطلب شيئًا... فقط أبتسم، لأنني الرابح!

تمهيد: بين الجنونِ والصدق... اخترت أن أكون ضد الجميع!
(لست نبيًا، بل رجلاً ضاق من القطيع!)

كنت حائرًا...
لا أعرف بأي عنوان أبدأ!

هل أسميه:
أيها الإنسان: احرق نسخة نفسك القديمة!
لأنه دعوة فاضحة لنسف الذات، وإعادة خلقها من العدم؟!
أم أسميه:
هذا الكتاب سيجعلك تكره نفسك... إن كنت حيًّا بعد؟!
لأنه لا يتركك نظيفًا من الداخل، بل يسلخك حتى العظم؟!
أم أسمّيه كما أردتُ أن أصرخ في وجوه الجميع:
ضدّ الجميع!
لأعلنها حربًا لا رجعة فيها على الطاعة، والدين، والعائلة، والقطيع، والمقدسات، والمساومة!

ثم راودتني عناوين أخرى لم أستطع التخلّي عنها، لأنها تقول كل ما في قلبي دفعة واحدة:

أيّها الإنسان، من دلّك على نفسك؟!
صرخة مشكّكة في أصل كل وعيك الموروث!
آهٍ لو كان في رأسك دماغ!
سُبةٌ في وجه العقل الكسول الذي يعيش على إعادة التغريد!
صرخة في وجه الذي يظن أنه يفكّر!
طعنة مُباشرة إلى قلب كل مُدّعٍ بالتحرر، وهو عبد لأفكاره الجاهزة!

اخترت في النهاية أن أكون "ضد الجميع"!
لأن لا أحد يستحقّ أن أكون إلى جانبه...
إلا العقل، إن كان حقيقيًا؛
والتمرّد، إن كان نقيًا؛
والإنسان، إن كان لا يزال يُجيد الغضب!

ما ستقرأه ليس محاولة للوعظ، ولا لنشر الوعي، ولا حتى للبصق على واقعك فقط!
بل هو تفجير لغرف مغلقة داخل رأسك...
هو إعلان تمرّد على الدين، والوطن، والهوية، والأسرة، والخوف، وكل ما تعلّمته وأنت ترتجف وتقول: هذا حلال، وهذا حرام، وهذا لا يجوز!

هذه ليست نصوصًا أدبية...
بل جرائم فكرية!
ليست مقالات... بل صفعات!
لا تطلب مني "احترام المقدسات"، لأنني جئت لأسخر منها جميعًا!
ولا تتوقع "لغة هادئة"، لأن القطيع لا يستيقظ إلا حين يُجلد!
ولا تبحث عن حلول...
لأن الحلّ الوحيد يبدأ من نسف كل ما تُؤمن به، وكل ما أنت عليه!

إن كنت تحب الإجابات الجاهزة... فلا تقرأ!
إن كنت تحتاج إلى مقدّس تُرضيه... فلا تتابع!
إن كنت ترتجف كلما مسّ أحدهم معتقدك... فارجع إلى بيت الطاعة!

أما إن كنت ما زلت تتنفس بشيء من الوعي؛
إن كنت لا تنام ليلاً لأن رأسك يرفض أن يُذعن؛
إن كنت قد شككت في نبيّك، وأبيك، وزعيمك، وذاتك...
فأهلاً بك!

هنا، لا مكان للمؤمنين النعاج، ولا للمثقفين الدبلوماسيين، ولا للثوار الفيسبوكيين!
هنا نصوص مكتوبة بالحبر والدم والاشمئزاز!

اقرأ... إن كنت حيًّا بما يكفي لتتحمّل الحقيقة!
أو اترك هذا الكتاب، وارجع إلى قفصك الأليف...
فهنا...

نحن ضدّ الجميع!

مقدّمة الكتيب:

يا هذا الذي يشبه الإنسان ولا يشبهه!
أيّها المخلوق الذي يضع على كتفيه رأسًا، لا ليُفكّر به، بل ليمنع سقوط قبعته أو عمامته أو شعاراته فوق التراب!

هذا الكتيّب ليس دعوة إلى العقل... بل فضيحة للعقل!
ليس انتصارًا للمنطق... بل محاكمة له بعد أن تبين أنه موظف عند الخرافة!
ليس محاولة لفهم الإنسان... بل محاولة لفهم لماذا يصرّ على أن يظل غبيًا رغم كل هذه الضربات التي تلقّاها من الحياة، والتاريخ، والذل!
سأكتب وكأنني أحتقر القارئ... لأنني كذلك!
أحتقر تلك النسخة المتعجرفة من نفسه، المتدثرة بـ"ما تعلّمه"، "ما ورثه"، "ما آمن به"، "ما لقّنوه إياه منذ الحفّاضة"!
سأكتب لأهدم، لا لأقنع!
ولن أقول لك: "فكر خارج الصندوق"... بل سأسألك: متى دخلت أصلًا؟!
وهل تجرؤ أن تعترف أنك مجرد صندوقٍ مليءٍ بأصوات الآخرين؟!
هذا الكتيب لا يشبه الكتب!
لا فهرس، لا مسكّنات، لا نوايا حسنة!
لا حياد، ولا تدرّج، ولا لغة مطواعة!
هو صفعة بلغة الكراهية، كي توقظ شيئًا ربما مات فيك منذ أول مرة قيل لك فيها: "عَيْب، ما بصير تفكر هيك"!
ستقرأ هنا ما يُفترض ألّا يُكتب!
وستشعر أحيانًا أنني أصرخ عليك، لا أكتب لك!
نعم! أنا أصرخ عليك! لأنك حتى اللحظة ما زلت تتلو آيات المنطق في كتبك، بينما تسجد للخرافة في واقعك!
تسخر من الوثنيين القدماء... وأنت تقبّل أيقوناتك السياسية والدين كل يوم وتدعوها بالفجر أن تنقذك من نفسك!

فلتقرأ هذا الكتيب كما يقرأ الحارسُ رسالةَ تهديد وُضعت له تحت الباب!
أو كما تقرأ الضحيةُ منشور قاتلها على فيسبوك!

في تمجيد الحماقة!

(أو كما يليق بها: الحماقة كنمط حياة مقدّس!)

منذ متى صارت الحماقة خطأً؟!
ومن قال أصلاً إن الجهل مذمّة؟!
الحقيقة الوحيدة الثابتة في هذا الوجود هي أن الغباء انتصر... لا لأن الأذكياء فشلوا، بل لأن الأغبياء اجتمعوا!
لقد حوّلوا الحماقة إلى دين، والغباء إلى هوية، والخرافة إلى وطن!

هل جرّبت يومًا أن تقول الحقيقة في مجلس عام؟!
جرب!
سوف يشعر الجميع أنك تعكّر صفو الطمأنينة، أنك شخص مزعج، غير متزن!
سيُنظر إليك كغريب الأطوار... لأنك فقط لم تُشارك في طقس النفاق الجماعي!
هنا تبدأ رحلتك نحو النبذ، لا لأنك مخطئ، بل لأنك فكّرت بصوت مرتفع!

الحماقة ليست مجرّد نقص في المعلومات!
إنها منظومة دفاعية متكاملة!
تشبه تحصينات مدينة قديمة:
الأسوار من الشعارات، الأبراج من الفتاوى، والخندق من "عيب" و"حرام" و"ما بصير تقول هيك"!
هي ليست "غياب العقل"، بل طرد العقل من منصبه، وتعيين الخرافة بديلة عنه مع مرتب شهري وامتيازات!

قل لي:
من يحكمك؟! ما شكله؟! كيف يتكلّم؟! ما هي مؤهلاته؟!
هل تراه يفكر؟! هل رأيت في عينيه أثراً لفكرة عبرت؟!
ومع ذلك تصفّق له كأنك اكتشفت سقراط بعقال!
لأننا ببساطة نعيش في عالمٍ لا يُعاقب على الغباء... بل يُكافئه!
تتقلد فيه المناصبُ من يملكونَ أقلّ ما يمكن من عقل... لأنهم لا يهدّدون النظام العام للأغبياء!

أيّها الحاكم الغبي، المُصفّق الغبي، الإعلامي الغبي، المعارض الغبي، الأستاذ الغبي، الخطيب الغبي، الزعيم الغبي...
يا صانع الواقع الرديء، ومستهلك الرداءة، وناقلها عبر أولادك بكل فخرٍ!
تحية حارّة من هنا، من هذا الفصل، إلى حماقتك التي صارت مدرسةً قائمةً بذاتها، تخرّج الملايين كل عام!

نعم، نعيش في نظام عالمي شعبي يُدار بقوانين الحماقة!
حتى أنك لو حاولت أن تكون ذكيًا، ستُتهم بالتعقيد أو بالتنظير!
وإذا قلت إنك تشكّ، سيتهمونك بأنك "تريد تشويه الحقائق"!
وإن طرحت سؤالًا وجوديًا، ستُقال عنك عبارة جاهزة: "كله من قلة الدين"!

الحماقة ليست مجرد لعنة!
إنها تقنية بقاء!
وسيلة للاندماج في المجتمع دون مساءلة، طريقة آمنة للعيش في قطيع، أن تفعل ما يُفعل، وتقول ما يُقال، وتضحك حين يُفترض بك أن تضحك، حتى لو كنت تبكي من الداخل!

لكن لا تقلق...
لا أحد سيلاحظ أنك تبكي...
لأنّ الجميع مشغولون بحفلة الضحك الجماعي على أنفسهم!

لقد خانك دماغك!

(العقل ككذبة جماعية)

لقد كنت تظن أن في رأسك عقلاً، أليس كذلك؟!
كنت تظن أن ما يدور في جمجمتك هو شيء مختلف عن بقية الناس، شيء خاص بك، شيء "يفكّر"!
ولكن، يا صاح، الحقيقة أن ما تسميه "عقلاً" ليس سوى صندوقٍ بريد...
تتساقط فيه الرسائل منذ ولادتك، وتقرأها كما هي، ثم تمضي واثقًا بأنك اخترتَ ما تعتقده!

العقل؟!
تلك الأسطورة التي ورثتها كما ورثت لون بشرتك، جنسيتك، واسمك الرباعي الممل!
ما تسميه عقلاً هو مجرد مستودع أصوات:
صوت الأب حين يصرخ،
صوت الأم حين تخاف،
صوت الشيخ حين يهدّد،
وصوت المعلم حين يُكرّر!

دعني أقولها لك بصراحة لن تسمعها في مدارس الحكمة ولا في كتب تطوير الذات:
أنت لم تختر أفكارك!
لقد تمت برمجتك كما يُبرمج جهاز التلفاز في فندق رخيص!

هل تؤمن بشيء؟!
هل لديك قناعة؟!
هل تظن أن هذا الإيمان نابع منك؟!
كلا!
كل ما في الأمر أنك كنت طفلاً صغيراً، يجلس في حضن الكبار، ويأخذ عنهم خرافاتهم وهم يقنعونه بأنها "حقائق مقدسة"!
ثم تكبر، وتعيد تدويرها على شكل رأي... وكأنك عبقري العصر!

دماغك خانك لأنك صدقته!
أعطاك شعوراً بالذكاء فقط لتنام جيداً!
أعطاك تبريرات لاختياراتك، فقط لأنك لا تحتمل فكرة أنك مجرد نسخة محسّنة من القبيلة!

عقلك هذا يشبه مترجماً أعمى...
يترجم لغة الرغبات إلى منطق، ويعطيك شعوراً بالسيطرة، بينما تقاد مثل خروف!

أنت لا تفكّر لتصل إلى الحقيقة!
أنت تفكّر لتدافع عن ما تريد تصديقه مسبقاً!
العقل في هذه الحالة ليس أداة معرفة... بل أداة تزوير أنيق!
دماغك هو محامٍ فاسد... يبحث لك عن حجج لتربح بها قضيتك حتى لو كنت مجرماً!

فكر الآن:
كم مرة غيّرت رأيك في فكرة جوهرية؟!
مرة؟! مرتين؟!
كم مرة كذّبت معتقدًا نشأت عليه؟!
كم مرة تجرّأت على سؤال من نوع: "وماذا لو كنت مخدوعًا بكل شيء"؟!
إن كنت لا تذكر متى... فدماغك لم يخنك مرة، بل يخونك كل يوم وأنت تضحك!

الذين يظنّون أن عقولهم تعمل، هم غالبًا أكثر من تعطّلت عقولهم!
لأن أول علامات الوعي هي الشك في الوعي نفسه!
وأول أبواب العقل هو الاعتراف بأننا مخلوقات تحب الأكاذيب أكثر من الحقائق... لأنها مريحة أكثر!

فلا تُراهن على دماغك كثيرًا...
فقد يكون أكثر من يكرهك، هو ذلك الشيء الذي تسميه "أنا أفكّر، إذًا أنا موجود"!

أفكار على هيئة سجون!

(كيف تتحوّل القناعات إلى قيود ذهنيّة!)

من قال إن السجون تُبنى من جدران؟!
أذكى السجون هي تلك التي تُبنى من الكلمات!
من المفاهيم اللامعة! من "الخير"، "الواجب"، "المقدّس"، "الوطن"، "النيّة"، "الهوية"، "الشرف"، و"الرضى بالقدر"!
كلها مصطلحات تدخل عقلك كأفكار... ثم تنقلب عليك كقيود لا تراها!

هل تعرف ما هو أخطر من الجهل؟!
قناعة الإنسان بأنه يفهم!
ذلك الإحساس الزائف بأن مفاهيمه صلبة، راسخة، وأنه يعرف "الصح من الخطأ"، و"الحق من الباطل"!
لكن الحقيقة المرة أن أغلب هذه المفاهيم صُمّمت لتجعل منك مخلوقًا طيّعًا، قابلًا للاستعمال، وسهل القيادة!

خذ مثلًا "الوطن"!
كلمة عاطفية، جميلة، تلمع كالذهب!
لكنها في لحظة معينة تُستخدم لربطك بالسلاسل، لا بالانتماء!
تُستخدم لتبرير القتل، الخيانة، الطاعة، المذلّة!
"حب الوطن" كان في كثير من الأحيان طريقة لتجريدك من عقلك، كي تسير نحو محرقةٍ جماعية وأنت تغني!

أو "الشرف"!
ذلك المفهوم الكاذب الذي حوّله الذكور إلى كيس قماش يضعون فيه غرائزهم، ثم يرمونه على المرأة لتدفع الثمن وحدها!
كلمة صُنعت لتبرير القتل، لإضفاء قداسة على النفاق الاجتماعي، ولتبرئة الوحوش طالما يضعون عمامة أو يحملون اسم العائلة!

و"القدر"؟!
أجل، تلك الكذبة الكبرى التي يُلقّنونك إياها منذ الطفولة:
"كل شيء مكتوب"!
"لا تعترض"!
"الله يختار لك الأفضل"!
وكأنك مجرد كرسيّ في غرفة ينتظر أن يضعه أحدهم في الزاوية المناسبة!
يا لك من مسكين!
لا تمسك المقود، ولا تعرف وجهتك، ثم تبتسم وأنت تهتف: "الحمد لله على كل شيء"!

كل فكرة لم تسألها من أين جاءت، ولماذا تؤمن بها، ولمن تخدم...
هي حبل مشنقة حول عنقك، مزخرف فقط بعبارات لطيفة!

نحن نعيش داخل أفكار غيرنا!
نكفّر ونؤمن، نحب ونكره، نقاتل ونتصالح، لا لأننا نعرف، بل لأن هناك منظومة مفاهيم سبقتنا، تم تلقيمنا إياها كالعلف!
مفاهيم وُلدت في لحظة خوف، أو قمع، أو رغبة في السيطرة، فاستمرت عبر الأجيال على أنها "حقائق مقدسة"!

لا تسألني كيف نتحرر...
اسأل نفسك أولًا:
هل لديك الشجاعة لتمزيق مفاهيمك؟!
هل تجرؤ أن تخلع عنك هذا الغشاء الناعم من الكلمات التي كبّلتك؟!
أن تقول: "أنا لا أعرف... وأنا لا أؤمن... وأنا لا أنتمي"؟!

إن فعلت، تهانينا:
لقد حطّمت أول سجن في رأسك، وعرفت لأول مرة شكل الحرية... ولو كانت مرعبة!

هل مازلت تقرأ؟! عظيم!
الآن نصل إلى أحد أخطر الأجزاء هذا الكتيب — لا يصلح للضعفاء، ولا يُقرأ في المساجد ولا في دور العبادة ولا على مكاتب السياسيين... لأنه ببساطة يحرق كل ما يسمّى "مقدّسًا"!
استعد، فهنا لا نكسر الأصنام، بل نكشف أنها كانت فارغة منذ البداية!

المقدّس... رائحة العفن المُعطّرة!

(حين يصبح التعفّن روحانيًا!)

أيها القارئ العزيز (وأعني العزيز على سذاجتك!)...
هل تساءلت يومًا ما الذي يجعل شيئًا ما "مقدّسًا"؟!
هل هو الجمال؟! المنطق؟! الحقيقة؟! القيم؟!
كلا!
المقدّس لا يُختار لأنه عظيم... بل يُقدّس لأنه ممنوع من المساس!

المقدّس هو أكثر الأشياء هشاشة...
ولهذا يحاط بهالة الرعب والتهويل كي لا يقترب منه أحد بالسؤال!
هو الشيء الذي لو حاولت مساءلته، تبدأ الرؤوس بالاهتزاز غاضبة، والعيون تتوحش، والصوت يصبح فجأة جهوريًا يقول:
"اسكت... لا يجوز!"

لكن ما هو هذا "المقدّس" تحديدًا؟!
قد يكون كتابًا كتبه رجال من زمنٍ لم يكن فيه مرحاض!
أو شيخًا أعمى لم يرَ الحياة لكنه قرر أن يفسّرها للجميع!
أو طقوسًا وعبادات تكرّرها دون أن تفهم، ثم تسجد بعمق لأنك لا تجرؤ على الوقوف!

المقدّس هو العفن المغطّى بالعطر!
أنت تشمّ منه شيئًا غريبًا...
تحاول أن تقول "هناك رائحة كريهة"، فيُقال لك:
"اخسأ، هذا عطر إلهي!"

المقدّس يُولد دومًا من الخوف!
من لحظة ضعف جماعية، من كارثة، من هزيمة، من موت غامض، من طفل مات بلا سبب...
فنخترع له سبَبًا...
ونبني حوله قصة، ونعبد تلك القصة!
ثم نقتل من يشكّ بها!

كل حضارة كان لها مقدّسها...
وكل مقدّس تمّ الدفاع عنه بالسيوف أو بالأكاذيب!
لكنك، أيها المؤمن العصري، تظن أن مقدّسك مختلف!
تظنه "الحق المطلق"!
رغم أنه يشبه في مضمونه طقوس عبدة النار أو عباد البقر...
الفرق الوحيد: اسم الإله... ولهجة المذيع!

المقدّس يحوّلك من إنسانٍ إلى نسخة مطبوعة!
لا تُفكّر، لا تتساءل، لا تجرؤ، لا تعيش!
فكل شيء صار محددًا لك: ماذا تأكل، كيف تحب، متى تتزوّج، من تكره، ماذا تلبس، متى تبكي، متى تضحك، ومتى تموت!

وأخطر ما في المقدّس؟!
أنه يجعلك تعتقد أنك خير من الآخرين...
فأنت المختار، الطاهر، الذي يعرف الحقيقة!
وتلك هي أول خطوة نحو صناعة الوحش...
الذي يقتل ويعذّب ويحرق ويقمع، وكل هذا بضمير مرتاح!

هل ترى لماذا هو "مقدّس"؟!
لأنه لو لم يكن كذلك، لما بقي دقيقة واحدة على قيد الحياة!
لأن الحقيقة البسيطة هي أنه لا يصمد أمام السؤال!
كائن هشّ، مثل دمية زجاجية، جميلة من بعيد، لكنها تتهشّم بمجرد لمسة!

فإليك هذه النصيحة الأخيرة من هذا الفصل، مكتوبة بحروف الخطر:
كل ما يُقال لك إنه "مقدّس"... اقترب منه فورًا!
اسأل، شكّك، قارن، واخلعه من عرشه!
فإن سقط، كان خدعة...
وإن بقي، كان يستحق التقدير... لا التقديس!

إليك التالي، حيث نكشف أكذوبة المنقذ المنتظر، ذلك الوهم الذي انتظرته الشعوب قرونًا، فقط كي تبرّر عجزها وخنوعها!

المُخلّص الكاذب... أنت من تنتظره!

(حين تُصبح الضحية عاشقةً للجلّاد!)

في كل زاوية من زوايا التاريخ، ستجد نفس الحكاية تتكرّر:
شعب مسحوق، مهزوم، مغسول الدماغ... ينتظر "مخلّصًا"!
رجلًا خارقًا، نبيًا جديدًا، زعيمًا يحمل النور، فارسًا على جواد أبيض، أو حتى "المهدي المنتظر" الذي سيخرج من كهف الزمان ليصلح العالم بضغطة زر!

لكن الحقيقة، يا عزيزي، أن هذا المخلّص لن يأتي...
لا لأنه مشغول، بل لأنه غير موجود أصلاً!

الفكرة كلها صناعة بشرية، وهم جماعي،
اختراع نفسي يحتاجه العبيد كي لا يعترفوا بأنهم قادرون على تحطيم قيودهم وحدهم!
فكلما زاد شعورهم بالعجز، صنعوا صورةً خارقة لمنقذ وهمي...
وكلما شعروا بالقهر، راحوا يغنّون له، يصلّون لقدومه، ينسجون الأساطير حول بطولاته...
وهم لا يحرّكون إصبعًا لتغيير شيء!

المخلّص هو الإبرة التي يُخدّر بها القطيع ألمَ الواقع!
وسيلة للهروب من المسؤولية!
فما أسهل أن تقول: "حين يأتي البطل، سيتغيّر كل شيء!"
ثم تعود إلى نومك...!

ويا للمهزلة!
حين لا يظهر "المخلّص"، يختارون أول نذل يصيح بالشعارات، ويعلنونه منقذًا!
ثم يبكون بعد سنوات، ويقولون: "لقد خدعنا!"
يا سيدي، لم يخدعك أحد!
أنت كنت تبحث عن خدعة لتُبرّر جبنك!

كل شعب ينتظر مخلّصًا، يستحق أن يُحكم بجلاد!
لأن الذي لا يتحرّك إلا إذا قاده أحد، سيقوده دومًا أسوأ من فيه!
والذي لا يثق بعقله ولا بقدرته، سيعلّق حياته على معجزة... ولن تأتي المعجزة إلا في شكل قنبلة!

أما المفارقة الكبرى؟!
أنك، أيها الإنسان، غالبًا ما تكون أنت من تنتظره!
نعم، أنت!
أنت الذي تملك العقل، والغضب، والذاكرة، واليد، والكلمة!
لكنك درّبت نفسك على أن ترى نفسك صغيرًا، عاجزًا، تافهًا... حتى صدّقت أنك لا تصلح إلا لتكون تابعًا أو شهيدًا أو بائسًا!
المخلّص لن يأتي!
لا من السماء، ولا من الحدود، ولا من بين الغيوم، ولا من صفحات التاريخ!
إذا لم تُولد في داخلك فكرة التمرّد، فكرة النهوض، فكرة أن "أنا من سيكسر السلسلة"...

فلا تنتظر شيئًا!
كل ما سيأتيك... هو مستبدٌ جديد، يلبس قناع الأمل، ويصفعك باسم الحق!

جميل أنك وصلت إلى هنا! دعنا نخوض الآن في عمق الجنون المنظّم، في مصنع البشر، حيث يصبح التفكير جريمة، والعقل مشروع شبهة!
سنحتاج قلوبًا أقسى من الرصاص!

التفكير جريمة... والعقل متّهم!

(كيف تُدار الحضارات بالخوف من السؤال!)

في هذا العالم، لا تحتاج إلى قنبلة لتُصبح خطراً...
يكفي أن تفكّر!

نعم، فقط أن تستخدم ذلك الشيء الغريب في رأسك...
أن تسأل سؤالًا بسيطًا: "لماذا؟"
أن تقول: "هذا غير منطقي!"
أن تتجرأ وتقول: "لا أصدق!"
حينها، تصبح خطراً على العائلة، وعلى المجتمع، وعلى الدين، وعلى الوطن، وعلى الأخلاق، وعلى كل صنم يعيش فوق جماجم الساكتين!

التفكير هنا تهمة جاهزة...
ليس لأنه يقودك إلى الجريمة، بل لأنه يوقظك من نوم القطيع!
وفي عالم يحكمه رجال الدين والسياسيون والتقاليد، آخر ما يريدونه هو إنسان لا يخاف السؤال!

في المدارس، يُدرّبونك على الحفظ لا على النقد!
في المساجد والكنائس، يُلقّنونك الطاعة لا الفهم!
في الإعلام، يُعلّمونك ما "يجب" أن تؤمن به لا ما "يمكن" أن تشكّ فيه!
وفي البيت، تُربّى على الصمت، كي لا تفضح هشاشة الكبار!

كل شيء حولك صُمّم كي لا تفكّر!
أن تكون نسخة مطبوعة، تمشي بقدمين ولكنك تنطق بلسان غيرك!
مجرد حامل أفكار مستعملة!

هل فكّرت يومًا لماذا كل من يفكّر يُرمى بالجنون؟!
لماذا يُقال له "ملحد"، "ضال"، "منحل"، "متمرّد"، "فاسق"، "عميل"، "شيطان بشري"؟!
لأن السؤال عندهم = خيانة!
والوعي = وقاحة!
والتجرؤ على استخدام العقل = اغتيال للتراث!

في حضارات القمع، التفكير لا يُكافَأ... بل يُعاقب!
والأكثر عبثًا؟!
أنّ العقل نفسه يُحوَّل إلى تهمة!
فبدل أن يُحتفل بك لأنك تشكّ، يتمّ نبذك لأنك "تشوّش عقول الآخرين"!
يُطلب منك الصمت... والركوع... والاعتذار عن وعيك!

عقلك هنا ليس زينة...
بل عبء ثقيل سيجرك إلى جحيم العزلة!
لأنك حين تفكّر، تنكسر الأوهام، وتنهار الأصنام، ويتحوّل المجتمع كله إلى حشدٍ مذعور يرى فيك فيروسًا ينبغي عزله أو قتله!

لكنّي أقول لك:
إذا كنت تفكّر... فلا تعتذر!
إذا كنت تسأل... فلا تَخَف!
إذا وجدت نفسك محاصرًا بالاتهامات لأنك تستخدم عقلك... فاعلم أنك بدأت الطريق الصحيح!
فالذين لا يُتهمون... لا يغيّرون شيئًا!

ألم تهرب بعد؟!
إذًا فلنفتح النار مباشرةً!
التالي ليس حوارًا مع الله... بل فضح لطريقة استغلاله!
لن نتحدث عن "الإله" بوصفه فكرة وجودية، بل بوصفه "سلاحًا سلطويًا" استُخدم ضد الإنسان منذ وُجد الخوف في قلبه!

حين يصبح الله موظّفًا عند الطغاة!

(كيف استُؤجر الإله لتبرير السوط والدم!)

منذ أن اخترع الإنسان الآلهة، لم يكفّ عن تجييرها!
لم يعد يكفيه أن يخاف الله...
أراد أن يجعل الآخرين يخافونه باسم الله!

هكذا وُلد التحالف الدموي بين السلطة والسماء...
بين الطاغية والخطبة...
بين السيف والآية!

الله في بلاد القهر ليس خالقًا... بل وثيقة توظيف!
مكتوب فيها:
"يُمنع الاعتراض!
يُمنع السؤال!
يُمنع العصيان!
لأن الحاكم هو ظل الله، والشرطي بيده الحق، والجلاد مأجورٌ من عند ربّك الأعلى!"

هل تفهم حجم المهزلة؟!
يُضربك الجلاد، فتقول: "الحمد لله"!
يُسرق راتبك، فيُقال لك: "ابتلاء من الله"!
يُذبح أولادك، فتقرأ على قبورهم: "إنا لله وإنا إليه راجعون"!

الله هذا لا أحد يعرفه...
أما "الله الرسمي" فهو موظّف إداري، يعمل بالدوام الكامل في خدمة الطاغية!

في كل حرب قذرة، يُستدعى اسمه!
في كل فتوى دم، يُذَكَّر بكلماته!
في كل حكم قمعي، يُقال: "شرعه الله"!
وكأن الإله تحول إلى مكتب بريد... تُرسل باسمه قرارات القتل والسكوت والاستعباد!

من قال إن الطغاة لا يؤمنون بالله؟!
هم أكثر الناس إيمانًا...
لكن بإلهٍ خاص، صُمّم على مقاسهم،
إله يبارك الذبح، ويُحرّم الثورة، ويصفّق للدبابة!

من هو الله عند السلطان؟!
هو صوت يصرخ في وجه الشعب: "اسكتوا، فالله مع وليّ الأمر!"
هو خادم أمين للجنرال، يعطيه صكّ الغفران كلما نَزَفَ الشارع دمًا!

لهذا كلما جاع الناس، سُمّي ذلك "صبرًا"!
وكلما تمرّدوا، صار "فتنة"!
وكلما صرخوا من الألم، قيل لهم: "الدنيا دار بلاء... اصبروا يُكتب لكم الأجر!"

هل تتذكر حين وُلدت الثورة؟!
أول ما فعلوه أنهم صعدوا المنابر وقالوا:
"لا تخرجوا على الحاكم، فطاعته من طاعة الله!"
هكذا يُستخدم الدين لتدجين الناس، وتحويلهم من متمرّدين إلى ضحايا خانعة!

إن أردت أن ترى الله،
ستجده في قصر السلطان... بل في دمعة التمساح، في صرخة المصابين بصرع الدين، لكنك لن تجده في عقلٍ رفض أن يُسخّر في خدمة الوحش!

دعني أقولها لك بصوت عالٍ:
الإله الذي يُستعمل لقمع الناس... ليس إلهًا، بل جلّادٌ متنكر!
وكل من يُرهبك باسمه، هو تاجر، موظّف، مرتزق ببدلة دينية!

تابع التالي، سيكون أقرب إلى فضيحة وجودية!
هنا لن نتحدث عنك كفرد، بل كمنتَج!
نعم، أنت مُنتَج مصنع اجتماعي... موضوع في علبة قومية أو دينية أو عشائرية، ومغلق بإحكام!

أنت لست أنت... أنت نسخة قومية، دينية، ذكورية جاهزة!

(حين يُصنّع الإنسان كما تُصنّع المعلّبات!)

تعتقد أنك "أنت"؟!
أنك كائن حرّ، تختار وتفكّر وتقرّر؟!
تبًا للخدعة!
منذ أن وُلدت، بدأ تصنيعك!
لا كشخص، بل كمشروع طاعة مُسبق!

قالوا لك من أنت قبل أن تسأل!
أنت مسلم!
أو مسيحي!
أو درزي، أو علوي، أو سنّي، أو شيعي!
قبل أن تفتح فمك لتسأل عن اسمك، كانوا قد طبعوا على جبينك دينك ومذهبك وانتماءك القومي والجغرافي والجيني...
تمامًا كما يُطبع تاريخ الإنتاج على علبة سردين!

قالوا لك:
أنت رجل، إذًا يجب أن لا تبكي!
أنت عربي، إذًا أنت أشرف من غيرك!
أنت مسلم، إذًا أنت على حق، والباقي ضالون!
أنت من العائلة الفلانية، إذًا لك شرف، وعليك ألا تتزوج من تلك العائلة!
أنت أنثى، إذًا عيب أن تصرخِ، أو تناقشي، أو تحلمي كثيرًا!

هل تلاحظ الكارثة؟!
كل شيء فيك تمّت برمجته قبلك!
كل فكرة تحملها ليست فكرتك...
كل قناعة تعتنقها، ورثتها، أو خفت أن تشكّك فيها!
كل مبدأ تدافع عنه، ربما لا تعرف أساسه، لكنك مستعدّ للموت من أجله فقط لأنهم قالوا لك إنه "شرفك" أو "دينك" أو "أصلك"!

أنت الآن تتحرّك داخل قالب!
قالب القبيلة، الطائفة، الحزب، الذكر، الأنثى، المجتمع، الله، الخوف، الصورة!
أنت نسخة طبق الأصل من سلالة لا تعرف عنها شيئًا سوى أنها "هويتك"!

وأسوأ ما في الأمر؟!
أنك تدافع عن هذه النسخة المزوّرة بكل شراسة!
تقتل باسمها، تكره باسمها، تُقصي باسمها، تُدمّر نفسك والآخرين تحت رايتها...
وكل هذا وأنت تظن أنك "أنت"... بينما أنت مجرّد تكرار!

الحرية الحقيقية؟!
هي أن تبدأ بمسح اللوح!
أن تعيد طرح كل سؤال من جديد...
أن تقول: أنا لست ما قالوه لي... بل ما أكتشفه بنفسي، وما أختاره رغمًا عنهم!
أن تخرج من العلبة، وتكسرها، وتبصق عليها، ثم تبدأ رحلة خلق نفسك!

لذلك اسأل نفسك بصراحة الآن:

هل "أنا" الذي أعيش به... هو أنا؟!
أم هو مجموعة أصوات تعيش داخلي... تشبه أبي، وأمي، وشيخي، ومجتمعي، وزعيم قريتي؟!

فإذا شعرت بالخوف من الجواب...
فأنت لا تزال عبدًا لهويتك المعلّبة!

ها نحن نقترب من العصب المكشوف...
ولن يكون عن الحرية كقيمة، بل كخدعة نردّدها بأفواهٍ مقيّدة وأرواحٍ مشلولة!
نقول إننا نحبها... لكننا نرتعب منها!

الحرية... الكذبة التي نخاف أن نصدّقها!
(حين تكون السلاسل أسهل من الطيران!)

الحرية!
آه، كم نحب أن نصرخ بها!
كم نرفعها شعارًا، ونهتف بها في الشوارع، ونكتبها على الجدران، ونبكي من أجلها في الأغاني!

لكن لنكن صادقين للحظة:
هل نريدها حقًا؟!
هل نتحمّل ثمنها؟!
هل نجرؤ على أن نكون أحرارًا فعلًا؟!
أم أننا فقط نحب أن "نتحدّث" عن الحرية، لكننا نخاف أن نلمسها؟!

الحرية ليست كلمة جميلة...
الحرية تعني أنك وحدك!
لا حاكم يعطيك الأوامر... ولا شيخ يقول لك ماذا تفعل... ولا مجتمع يرسم لك الطريق...
تعني أنك مسؤول عن كل شيء:
عن اختياراتك، وأفكارك، وخراباتك، وسقوطك!

والناس لا يريدون ذلك!
يريدون حاكمًا يقرّر، ودينًا يُرشد، وزعيمًا يُفكّر، وعائلةً تُحاصر، وقانونًا يُقيّد!
ثم يقولون: نحن نحب الحرية!
يا للعهر!

الحرية ليست أن تخلع الحجاب أو أن تلبسه...
ليست أن تشرب الكحول أو ترفضه...
ليست أن تهاجم الدين أو تدافع عنه!
الحرية هي أن تختار بلا خوف، وبلا سلطة فوقك، وبلا قيد داخلك!

أن تقول: "أنا أفكّر، إذًا أنا أعيش"... حتى لو كرهك الجميع!
أن ترفض كل ما فُرض عليك، حتى لو خسرت كل شيء!
أن تتحمّل نتائجك كاملة، بلا أن تُعلّق فشلك على الله، أو العائلة، أو الظروف!

لكن أغلب الناس لا يريدون الحرية...
يريدون قفصًا جميلًا، فيه طعام، ودواء، وبطاقة هوية، وسرير دافئ!
يريدون أن "يشعروا" بأنهم أحرار، لا أن يكونوا أحرارًا!
يريدون أن يعيشوا في سجن... ثم يكتبوا فوق بابه: هذه إرادتي الحرة!
يريدون القيود، ثم يقولون: الحرية هي أن أختار قيدي!
وتُصفّق الجماهير، وينام الضمير!

الحقيقة المُرّة؟!
أن الحرية مخيفة!
لأنها تجعلك بلا أعذار، وبلا شماعات، وبلا مقدّسات تحتمي بها!
الحرية تجعلك مرآةً لنفسك... وإذا كنت لا تطيق النظر في داخلك، ستهرب منها كما يهرب العبد من الحقيقة!

الحرية لا تليق بالجميع!
هي نُدبة، لا زينة!
هي خيار، لا شعار!
هي مشروع شاقّ... يبدأ من تحطيم داخلك، لا فقط من سبّ الحاكم أو الدين!

فإذا كنت لا تزال تبرّر جبنك...
وتغلف خضوعك بكلمات أنيقة...
وتعيش داخل قوالب أعدّها غيرك لك...
فلا تقل إنك "حرّ"!
بل قل: أنا خائف من الحرية... وأحتاج قيدي كي أنام بسلام!

الآن نصل إلى قمة الوجع... النقطة التي يتوقّف عندها الجميع، خوفًا من غضب الجماهير!
لكننا لن نخاف!
لن نربّت على رأس القطيع، بل سنصفعه!
لن نقول: "الشعب مظلوم" بل: "الشعب متورّط حتى العظم!"

الشعب ليس ضحية... بل شريك في الجريمة!

(حين يتحوّل المقهور إلى جلاّد، ويُصبح الصمت خيانة علنيّة!)

كم مرة سمعت العبارة السخيفة:
الشعب دائمًا على حق!
يا لها من كذبة لذيذة، تُسَكِّن الضمير وتُعمي البصر!

لكن ماذا لو كان الشعب نفسه هو الجلاّد؟!
ماذا لو كان القمع يخرج من البيوت، لا فقط من السجون؟!
ماذا لو كانت أمّك وأبوك وإخوتك وجيرانك وأساتذتك هم من يطاردون حريتك، لا المخابرات فقط؟!

الحاكم مستبد؟! نعم!
لكن من يصفّق له كل جمعة؟! الشعب!
الشيخ منافق؟! نعم!
لكن من يملأ المساجد خلفه؟! الشعب!
الطاغية قاتل؟! نعم!
لكن من يحمل صوره، ويعلّقها على الجدران، ويسبّح بحمده في الإذاعات؟! الشعب!

الشعب ليس ضحية نقية...
بل ماكينة تبرير، تصنع الكارثة، ثم تبكي عليها!
يخاف التغيير، يكره الأسئلة، يركض إلى القفص كلما فُتِح الباب... ثم يشكو من السجن!

الشعب الذي يخون المثقف، ويُسكت المختلف، ويخشى الحرية، ويكره الثائر،
ليس شعبًا مظلومًا... بل شعب خانع ومتواطئ!
والذي يبيع صوته مقابل كيس طحين، لا يستحق دولة، بل يستحق صفعة!
والذي يربّي أبناءه على الخنوع، لا يورّثهم وطنًا، بل عبودية!

أخطر ما في الطغيان؟!
أنه حين يطول، يتحوّل إلى ثقافة!
وحين يتحوّل إلى ثقافة، يصبح الشعب حارسه الأول!
يُعيد إنتاجه في البيت والمدرسة والمجتمع، ويراقب كل من يُفكّر، ويعاقب كل من يحاول أن يخرج من الصف!

الشعب في النهاية هو من يصنع جلّاده...
إما بصمته، أو بخوفه، أو بحماقته، أو بحنينه إلى العبودية!

لذلك حين تقول لي: الطاغية ظلمنا!
سأسألك:
وماذا فعلتم أنتم؟!
هل صرختم؟!
هل حاربتم؟!
هل كسرتم الصنم؟!
أم صوّتم له... وقلتم "بيستاهل يحكمنا"؟!

أيها الشعب الطيّب... المتواطئ... الباكي على قبرٍ هو من حفره:
لن أقول لك "سلامًا"
بل سأقول لك: اصحَ... أو انقرض!

الخاتمة: حين يصبح العقل سلاحًا... تصبح الحياة معركة!

ما قرأته ليس كتابًا...
بل مرآة مشقوقة، وضعتُها أمامك كي ترى بشاعتك!
ليست كلمات، بل صفعات!
ليست أفكارًا، بل إعلان حرب على كل قيدٍ في دماغك!

إن أردت خلاصًا... فابدأ من هنا:
اشكّ بكل شيء!
بمَن ربّاك، بمَن علّمك، بمَن صرخ باسم الله في وجهك، وبمَن قال لك "اسكت"!
كُن ملحدًا من كل سلطة، حتى تجد المعنى بنفسك!

كُن لقيطًا فكريًا... لا تنتمي إلا إلى الحقيقة!
كُن مجنونًا في عينهم... لكنك ستكون أوّل العاقلين!

ولا تنسَ هذه الحقيقة:
العقل الذي لا يجرح، لا يُحرّر!
والحياة التي لا تُصادم، لا تُستحق أن تُعاش!

فإما أن تكون حرًا حتى الجنون...
أو عبدًا حتى الموت!
أحفرْ في رأسك... أو ابقَ جثةً تبتسم في القطيع!

لا أحد يخرج من هذا الكتاب سليمًا!
إما أن تُصاب بالدوار، أو بالهلع، أو بلعنة السؤال!
وإن لم يحدث لك شيء... فالمصيبة فيك، لا في النص!

أردتك أن تتألم!
أردتك أن تغضب من كل ما كنت تعتبره "مُسلّمًا"... من دينك، من وطنك، من أبيك، من نفسك، من صوتك الداخلي الذي يُذكّرك دومًا بماذا "ينبغي" لا ماذا "يُمكن"!

أردتك أن تتقيّأ كل الأكاذيب التي حشوا بها دماغك مذ كنت طفلًا، تُصفّق في الطابور الصباحي، وتخاف من الإله الذي يتربّص بك من فوق، وتنتظر الجنة مقابل السكوت!

هذا الكتيب ليس إعلان حب للعقل، بل إعلان كراهية لكل من قَتَله!
لكل من جعله أداةً للنجاة بدل أن يكون سلاحًا للتمرّد!
لكل من علّمك كيف تفكر... بشرط ألا تفكّر خارج الخط الأحمر!

فإن كنت تبحث عن إجابات، فاحرق هذا الكتاب!
لأنني لا أملك جوابًا واحدًا!
كل ما فعلته هنا هو أنني شتمت سجونك،
ضحكت على مقدّساتك،
وبصقت على اليد التي علّمتك كيف تكون عبدًا بأدب!

أنتَ وحدك من يقرر: إما أن تكون رقمًا آخر في طابور طويل من المطيعين، أو أن تمشي عاريًا، جريحًا، قاسيًا، سائلًا، شاكًّا، متمردًا، مكسورًا، حرًّا!

لكن تذكّر جيدًا:
الحرية ليست كذبة النظام... بل لعنة الوعي!
هي أن تنام وفي داخلك حرب!
هي أن تقطع رأسك القديم كل ليلة... وتنتظر أن ينبت عقل جديد في الصباح!

فإن كنت مستعدًا أن تجرح نفسك من الداخل... وتشكّك في كل ما تعرفه عنك...
وتعيش من دون يقين، من دون إله، من دون جماعة، من دون طمأنينة جاهزة...
فأهلاً بك في الجحيم الجميل!
جحيم التفكير!

أما إن أردت حياة هادئة، مستقيمة، مطمئنة، مليئة بالدعاء والمجتمع والأخلاق والتراث والولاء والبيعة والستر والستر والستر...
فأغلق هذه الصفحات، وعد إلى قبرك المريح!

في النهاية...
لن أنصحك!
لن أقول لك: "كن حرًا" أو "افعل كذا"!
بل سأقول لك فقط:

اختر موتك بنفسك!
فإما أن تموت واقفًا، مفكّرًا، وحدك، مطرودًا من الجماعة،
أو أن تموت مطيعًا، مُطبّعًا، محاطًا بالتصفيق، مدفونًا بآيات الغفران!

وفي كلتا الحالتين...
الموت قادم!
لكن أحدهما موت حرّ!
والآخر... مجرّد جنازة للدماغ!

أنت تقرر!